

## المحاضرة الثالثة

### باب البيان

#### [حد البيان]

قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم، والمتخلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أمره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره. وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وأخبارهم عنها، واستعمالهم إياها. وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم، وتجلبها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهرا، والغائب شاهدا، والبعيد قريبا. وهي التي تلخص المتببس، وتحل المنعقد، وتجعل المهمل مقيدا، والمقيد مطلقا، والمجهول معروفا، والوحشي مجلوبا، والغفل موسوما، والموسوم معلوما.

وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى. وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين

وأنور، كان أنفع وأنجع. والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه، ويدعو إليه ويحث عليه. بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم.

والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يغضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والأفهام، فبأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع.

ثم اعلم- حفظك الله- أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ، لأن المعاني مبسوسة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة، ومحصلة محدودة.

#### [أدوات البيان الخمس]

وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة. والنصبة هي الحال الدالة، التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصر عن تلك الدلالات، ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبها، وولية مخالفة لولية أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير، وعن أجناسها وأقذارها، وعن خاصها وعامها، وعن طبقاتها في السار والضار، وعما يكون منها لغوا بهرجا، وساقطا مطرعا.

قال أبو عثمان: وكان في الحق أن يكون هذا الباب في أول هذا الكتاب، ولكننا أخرناه لبعض التدبير.

وقالوا: البيان بصر والعي عى، كما أن العلم بصر والجهل عى.

والبيان من نتاج العلم، والعي من نتاج الجهل.

وقال سهل بن هارون: العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم.

وقال صاحب المنطق: حد الإنسان: الحي الناطق المبين.

وقالوا: حياة المروءة الصديق، وحياة الروح العفاف، وحياة الحلم العلم، وحياة العلم البيان.

وقال يونس بن حبيب: ليس لعي مروءة، ولا لمنقوص البيان بهاء، ولو حك بيافوخه أعنان السماء.

وقالوا: شعر الرجل قطعة من كلامه، وظنه قطعة من علمه، واختياره قطعة من عقله.

وقال ابن التوأم: الروح عماد البدن، والعلم عماد الروح، والبيان عماد العلم.

قد قلنا في الدلالة باللفظ. فأما الإشارة فباليد، وبالرأس، وبالعين والحاجب والمنكب، إذا تباعد الشخصان،

وبالثوب وبالسيف. وقد يتهدد رافع السيف والسوط، فيكون ذلك زاجرا، ومانعا رادعا، ويكون وعيدا وتحذيرا.

والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه. وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني

عن الخط. وبعد فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحلية موصوفة، على اختلافها في طبقاتها

ودلالاتها. وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفق كبير ومعوونة حاضرة، في أمور يسترها

بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس. ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص

الخاص، ولجهلوا هذا الباب البتة. ولولا أن تفسر هذه الكلمة يدخل في باب صناعة الكلام لفسرتها لكم. وقد

قال الشاعر في دلالات الإشارة:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها ... إشارة مذعور ولم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا ... وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم

وقال الآخر:

وللقب على القلب ... دليل حين يلقاه

وفي الناس من الناس ... مقاييس وأشباه

وفي العين غنى للمر ... أن تنطق أفواه

وقال الآخر في هذا المعنى:

ومعشر صيد ذوي تجله ... ترى عليهم للندى أدله

وقال الآخر:

ترى عينها عيني فتعرف وحميها ... وتعرف عيني ما به الوحي يرجع

وقال آخر:

وعين الفتى تبدي الذي في ضميره ... وتعرف بالنجوى الحديث المعمصا

وقال الآخر:

العين تبدي الذي في نفس صاحبها ... من المحبة أو بغض إذا كانا

والعين تنطق والأفواه صامتة ... حتى ترى من ضمير القلب تبياننا

هذا ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت. فهذا أيضا باب تتقدم فيه الإشارة الصوت.

والصوت هو آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف. ولن تكون حركات اللسان لفظا

ولا كلاما موزونا ولا منثورا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف. وحسن الإشارة

باليد والرأس، من تمام حسن البيان باللسان، مع الذي يكون مع الإشارة من الدل والشكل «١» والتقتل

والثنائي «٢»، واستدعاء الشهوة، وغير ذلك من الأمور.

الاستئلة:

١. ما حد البيان؟

٢. ذكر الجاحظ العلاقة بين المعاني والبيان، اشرح هذه العلاقة.

٣. ما هي أدوات البيان.

٤. زن الآتي وزنا عروضياً:

قول الشاعر:

وللقلب على القلب ... دليل حين يلقاه

وفي الناس من الناس ... مقاييس وأشباه

وفي العين غنى للمر ... أن تنطق أفواه

وقال الآخر في هذا المعنى:

ومعشر صيد ذوي تجلّه ... ترى عليهم للندى أدلّه